مهن الأدباء في الأندلس

د. محمد عثمان علي الكيلاني
قسم اللغة العربية–كلية الآداب– جامعة بنغازي

مقدمة:

عرفت الأندلس حضارة إسلامية شهد لها التاريخ، وفي مجال الدرس الأدبي نجد بعدا ثقافيا مهمّا أسهم في تشكيل العقلية الأندلسية على العموم، وفي صناعة الفكر الأدبي على الخصوص، فالأدباء الأندلسيون حباهم الله بالموقع الجغرافي المتميز، والبيئة الطبيعية التي اشتهرت بها الأندلس، ثم إنهم نشأوا في بيئة تعج بالعلم والعلماء، والشعر والشعراء، فكان لتكوينهم النفسي والعقلي طابع خاص زاوج بين التنعم بالطبيعة، والجد في طلب العلم، وغرض وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي يقف شاهدا على حب الأندلسي لوطنه، وافتتانه بطبيعة بلده، والقارئ لكتب التراجم الأندلسية، وكتب تواريخ الأدب يجد ذلك جليًّا بإزاء الحرص على طلب العلم وبذل الوسع في سبيل تحصيله.

أسباب اختيار الموضوع:

قد استوقفني في أثناء دراستي لتراجم الأندلسيين، وأعني الأدباء بشكل خاص، سؤال مفاده: ممَّ كان يعيش هؤلاء الأدباء؟ وما مصدر قوتهم وكسبهم؟ وهل لذلك أثر في منازعهم الشعرية، ووقفت على مهن وحرف كثيرة عرفها الأدباء آنذاك، فرأيت أن الأمر حريٌّ بالبحث وجدير بالدراسة، فجمعت ما استطعت جمعه من هذه المهن والحرف من خلال كتب التراجم وتواريخ الأدب المعتنية بالأندلس تاريخا وفكرا وأدبا، واخترت لهذا البحث عنوان: (مهن الأدباء في الأندلس)؛ ليشمل الكتاب والشعراء، مع أن التفرقة بين الكاتب والشاعر غير ميسرة، إلا أن الغاية لم تكن التفرقة، إذ يكفي أن يوصف الأديب بالكاتب الحاذق أو الشاعر المجيد، أو ما شابه ذلك.

الحق أن معظم الكتاب قرضوا الشعر كثيرا أو قليلا، إلا أن منهم من غلبت عليه الكتابة فعرف بها، ومن المعلوم عن عصور أدبنا العربي الأولى موسوعية المعرفة، واتساع رقعة البراعة في الفنون والعلوم، فتجد الكاتب شاعرا ووشاحا وزجالا والمؤلف تاريخيا وفقيها ومحدثا وطبيبا ومهندسا وفلكيا، إلى غير ذلك من فنون ومعارف وإبداعات.

منهج البحث:

يقوم هذا البحث على رصد مهن الأدباء من خلال تراجمهم، أو من خلال الإشارة إليهم، والحديث عنهم في كتب تواريخ الأدب، فمتى ما ذكرت مهنة أحد أدباء الأندلس دونتها، فجمعت عددا لا بأس به من المهن يصلح

للدراسة، ولا أدّعي الاستقصاء الشامل للأدباء كلهم، فليست هذه غايتي، إنما أردت حصر ما يصلح شاهدا من خلال عدد من أمهات الكتب كالذيل والتكملة، والمغرب في أخبار المغرب، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، واختصار القدح المعلى، وغيرها، فحصر المهن في هذه الكتب وغيرها يصلح أساسا لبناء هذا البحث الذي استثنيت فيه مهن العلماء؛ لكي لا تتسع رقعة البحث وتخرج عن مقصديته الأدبية، فهذه الدراسة موضوعية تهتم بموضوع مهن الأدباء، وتستقصي هذه المهن في عدد من أمهات الكتب الأندلسية.

أهمية الموضوع:

إن الحديث عن مهن أدباء الأندلس يحيلنا إلى الحديث عن الطبقات الاجتماعية لهؤلاء الأدباء، فهم ليسوا سواء من حيث وفرة المال، وندرته، وانعدامه، وأسباب ذلك مختلفة، منها الحسب المتوارث، فالأديب سليل بيت الجاه والمال يمكنه التفرغ للعلم، وبذل الوسع للسبق في ميادين الإبداع الأدبي، يبين ذلك ما دار بين ابن حزم والقاضي أبي الوليد الباجي الذي قال: "أنا أعظم منك همّةً في طلب العلم، لأنك طلبته وأنت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب، وطلبتُه وأنا أسهر بقنديل بائت السوق، فقال ابن حزم: هذا الكلام عليك لا لك، لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبتُه في حين ما تعلمه وما ذكرته، فلم أرجو به إلا علوّ القدر العلمي في الدنيا والآخرة، فأفحمه"(المقّري،1988م، 77/2)، ومنهم الذي كسب المال لمحاباته للسلطان، وتقربه منه، أو لانخراطه في وظيفة عنده، ومن هؤلاء من نال دنيا عريضة، ومالا وفيرا، ومنهم من نُكِّب وشواهد ذلك كثيرة في كتب التاريخ.

ومنهم من كان من الطبقة المتوسطة التي انبرى منها مجموعة اتخذت العلم وسيلة للكسب بطرق متعددة، ومنهم من تدهورت حالته الاقتصادية فبحث عن مصدر رزقه من خلال مهن وحرف منتشرة في المجتمع الأندلسي، وفي هذا البحث محاولة لتبيين كل ذلك.

يمكن تقسيم أهم المهن ومصادر الكسب لأدباء الأندلس قسمين: قسم لايجيده إلا أهل الأدب والعلم: كالقضاء، والكتابة للملوك والأمراء والرؤساء، والعمل عندهم في أمور يجيدها المتعلمون كالحسبة، والإشراف على الجبايات، ومهنة عقد الشروط والوثائق، والوراقة والنسخ، والتأديب والتدريس، والطب، وغير ذلك. وقسم يشترك فيه الأدباء المتعلمون وغيرهم من أبناء المجتمع: كالحياكة، والفلاحة، والصناعات اليديوية، والعطارة، والجندية، والفخارة، والنجارة. ومن الأدباء من كان مصدر رزقه الصدقات يتعيش منها.

المبحث الأول: مهن الأدباء المتعلمين:

1- مراحل التعلّم في الأندلس:

تعددت مصادر كسب الأدباء المتعلمين حسب حظ كلٍّ منهم من العلم، فمنهم من اتخذ العلم الشرعي طريقا للارتقاء في مناصب القضاء، وقد أدّت المجالس العلمية التي كان يعقدها الأمراء والخلفاء والملوك دورا مهما "جدا في تطوير الحركة العلمية التعليمية، وفي الارتقاء بالمستوى العلمي لفقهاء الأندلس، وفي إثارة الحماسة بين الأدباء والشعراء وغيرهم" (عيسى، 1982م، ص474)، وكانت مراحل التعليم في الأندلس تبدأ من سنّ الطفولة "التي يحفظ فيها الطفل القرآن الكريم ويتعلم القراءة والكتابة وبعض العلوم الأخرى...أما المرحلة الثانية فإن الطفل كان يتلقى فيها تعليما أوسع وأشمل وأكثر تركيزا حيث أصبح في إمكانه تلقي شروح القرآن وتفسيراته، وقراءاته، وكذا الحديث والآراء الفقهية وما إلى ذلك من علوم الدّين، أو العلوم الإنسانية عامة، كما أنه يمكن له أن يبدأ في دراسة العلوم العقلية" (عيسى، 1982م، ص211–212)، وهذه المرحلة تؤهل صاحبها ليكون متعلما، أما المرحلة الثالثة ففيها الرحلة لطلب العلم "والانتقال من مكان إلى مكان؛ بغرض التركيز، والتخصص ما أمكن، في ناحية أو في عدة نواحٍ من العلوم التي سبق وبدأ تعلمها في المرحلة الثانية" (عيسى، 1982م، ص212)، وهذه المرحلة تؤهل صاحبها للتصدر لتعليم الناس.

2– التكسب بالشعر والكتابة عند الملوك والرؤساء:

أسهمت البيئة الأندلسية في تعلق أبناء المجتمع بالعلم والأدب، فقد كان المتعلمون مبرزين فيها مقدمين على غيرهم في ارتقاء مناصب الدولة، وتقلد الوظائف المهمة، لذلك توخى بعضهم تعلم العلم الشرعي؛ للوصول إلى مناصب القضاء المرموقة في المجتمع، وتحرى آخرون تعلم الفنون الكتابية، والافتنان فيها؛ لنيل منصب الكتابة عند هذا السلطان، أو ذاك الأمير، ومن لم يحالفه الحظ اكتفى بتصيد الآداب والفنون البلاغية المؤهلة إلى إجادة الكتابة والقريض؛ ليبرز في الشعراء مادحا متكسبا بشعره، ومن هؤلاء من نال راتبا ثابتا عند السلطان، ومنهم من نال أعطيات من أكثر من ملك وأمير، وصاحب جاه ومال، فالعلم سبيل لكسب الرزق، إما بالوظيفة القارة، أو المكافآت الطارئة، وهذه الأخيرة كانت في الغالب من نصيب الشعراء المدّاحين.

قد زخرت تراجم شعراء الأندلس بالمزاوجة بين موهبتي الشعر المادح والكتابة السلطانية، فنجد الشاعر كاتبا، والكاتب شاعرا، مع غلبة جانب على آخر في كثير من الأحايين، وقد "كان الشعراء والكتاب في الواقع إما من الطبقة الارستقراطية، وعندئذ يضفون حياتهم ويعكسون في أدبهم قيمهم الفكرية والخلقية ومقاييسهم في الحياة وموقفهم منها أو أنهم من طبقات أخرى غير الطبقة الارستقراطية وفي هذه الحالة ما على الأديب إلا أن يستخدم نبوغه لتحسين ظروف حياته ورفع مستوى معيشته، وما من سبيل لذلك في تلك العصور سوى أن يقدم إنتاجه إلى الطبقة الغنية

القادرة على أن تقدم له ثمنا ما" (خالص، 1965م، ص81)، إنّ تبني السلطة السياسية لنشر العلم والأدب والاهتمام بالمتعلمين والعلماء والأدباء أسهم إسهاما كبيرا في ازدياد عدد الأدباء والعلماء في الأندلس كما أسهم في ازدياد رواد العلم بل والمفاخرين باقتناء الكتب والمكتبات وإن لم ينالوا حظا كبيرا من العلم (عيسى،1979م، ص91).

إن اختلال أحوال الأندلس السياسية وسقوط عدد من مدنها كان من أسباب ذيوع ظاهرة التكسب بالشعر، فقد "هاجر عدد كبير من الأدباء والشعراء من جزيرتهم فارين بأرواحهم، واختلفت وجهات الشعراء فاتَّجه بعضهم إلى مراكش وغيرها من مدن المغرب، وهاجر بعضهم إلى بجاية وتونس وشمال إفريقية، ورحل آخرون إلى مصر والمشرق" (عيسى،1979م، ص91). وقد وجّهت هذه الأماكن الجديدة قرائحَ الشعراء نحو غرضين شعريين مسّا حياتهم بشكل مباشر، فالشعور بالغربة والبعد عن الوطن المفقود أذكيا مشاعر كثير منهم، ممّا أسهم في ازدهار غرض الغربة والحنين، كما أن البعد عن الموطن الذي فيه مصدر الرزق، وفيه يعرف للأديب جاهه ومكانته وحسبه، وفيه ماله وإقطاعاته وأرزاقه، ألزمه البحث عن مصادر أخرى للرزق يتعيش منها، فوجد كثير من الشعراء أن أنجع طريقة لذلك مدح الملوك والأمراء، وكل مَن يُرتَجى منه عطاء، فذاعت على ألسنتهم مدائح كثيرة.
ومنهم مَن لم يستطع التأقلم مع الوضع الجديد فاجتر مرارات غربته، وبثَّ لواعج شكواه ممّا لاقاه فيما قد يراه الأندلسيون المهاجرون منفى لهم. (عيسى،1979م، ص96).

إن الشعر لم يكن وقفا على من امتهنه؛ بغية الكسب المادي، فقد وُجد من أصحاب المهن والحرف الأخرى من أجاد قرض الشعر، "وقلما خلت ترجمة أندلسي من شعر منسوب إليه ، سواء أكان المترجم له أميرا، أو وزيرا، أو كاتبا، أو فقيها، أو نحويا، أو فيلسوفا، أو طبيبا، أو غير ذلك"(عتيق،1975م،ص16)، ولعلّ شيوع الشعراء المداحين يرجع لطبيعة نظم الشعر آنذاك، إذ إنَّ "الشعراء الأندلسيين كانوا يصدرون عن سليقة وطبع، كما أن الجو كان يساعد على من له طبع وقابلية شعرية على أن يبدع ويجيد في الشعر الفصيح، وإن لم يكن من الدارسين للشعر ولا للأدب" (عيسى، 1982م، ص321)، ويفسر هذا طغيان الشعر على جميع التخصصات فقد كان تعليمه "يتم عفوا أثناء تدريس العلوم الأخرى فحين يلاحظ الأستاذ موهبة تلميذه الشعرية، فإنه يعمل على تنميتها وصقلها حتى يمكن له أن يصل إلى مكانة جيدة في الشعر" (عيسى، 1982م، ص323) كما حدث مع الأستاذ علي بن الشلوبين الذي جعل ابن سهل وابن سعيد يتقارضان الشعر في مجلسه.

من خلال ما سبق يتضح أن اتخاذ الشعر وسيلة للكسب أمر شائع بين أدباء الأندلس وإن كان للشاعر مصدر رزق آخر غير التكسب بالشعر. أما الكتاب فوضعهم مختلف قليلا، فهم ملازمون لمن يكتبون عنهم، وطبيعة عملهم

تستدعي الاستقرار، فلا يكثر تنقلهم بين البلدان والممالك، فالكاتب قارٌّ، والمدّاح متنقل، وبعض الأدباء زاوج بين الأمرين؛ لنيل راتب ثابت عن الكتابة، وكسب ودّ وأعطيات من خلال الشعر، فظهرت بذلك طبقة الكتاب الشعراء (ابن عبد الملك، 275/1،ه3).

لا مجال هنا لحصر مدائح الشعراء التي قالوها تكسبا وتزلفا، فهي كثيرة جدا، وهذه الكثرة لا تشي ببعد اقتصادي للشاعر المدّاح من حيث عوزه وحاجته للمال فحسب، إذ إنها تمثل بعدا ثقافيا للمجتمع الذي ارتضى تسويق النفاق السياسي ببرد قشيبة من استعارات وتشبيهات ومبالغات وضروب من البلاغة وتنميق العبارة، ومن أمثلة هؤلاء الشعراء الذين تكسبوا بالشعر محمد بن عبدالله بن غَيّاث، فشعره " في أمداح الملوك والرؤساء وغير ذلك كثير جدا" (ابن عبد الملك، 1973م، 295/6)، ومن هؤلاء الشعراء من كان مرتبا في شعراء الملوك، فهو يتحصل على أعطيات الملك أو السلطان بشكل منتظم، نظير إخلاصه في المدح للسلطان، ومن هذا الصنف أبو الحسن بن سَلَام، وقد "وزَر أبوه للمعتمد بن عباد ودخل أبو الحسن هذا على المعتمد مادحا له وسنه دون العشرين فاستنبله... وألحقه في ديوان الشعراء" (ابن عبد الملك، 48/4)، وأحمد بن عتيق بن الحسن البلنسي، وقد كانت له عطايا من السلطان (ابن عبد الملك، 281/1)، ومن كتّاب السلاطين والأمراء محمد بن عبد الله بن خطاب الغافقي الذي "استعمل مدّة في غرناطة في الكتابة السلطانية" (ابن عبد الملك، 1973م، 332/6)، وسليمان بن أبي عيسى الذي كان أديبا شاعرا "كاتبا محسنا كتب عن القائد أبي عبد الله بن ميمون" (ابن عبد الملك، 77/4)، وقد كان محمد بن إبراهيم بن أصبغ الإشبيلي "أديبا بارعا... كتب في شبيبته عن بعض أمراء وقته ونال معه دنيا واسعة وجاها عريضا ثم ترك ذلك زاهدا" (ابن عبد الملك، 1973م، 243/6)، وامتهن تدريس كتاب الله ونسخه، وهذا منزع نجده عند بعض أدباء الأندلس، حيث يرى الأديبُ الكتابةَ عن الأمراء منافية للورع والتقوى؛ ولعل مردّ ذلك لما تتطلبه هذه المهنة من شروط في صاحبها قد تفضي به إلى النفاق السياسي، وفي جانب آخر نجد مهنة الكتابة ممهدة لصاحبها الطريق في ارتقاء المناصب الكبيرة، وقد يصل الارتقاء إلى رئاسة البلد التي يسكنها الكاتب، كما هو الحال مع محمد بن أحمد بن عبد الرحمن العبيدي الإشبيلي الذي "كتب عن ولاة إشبيلية من بني عبد المؤمن واختص كثيرا منهم بأبي عمران بن عبد الله بن يوسف بن عبد المؤمن" (ابن عبد الملك، 1965م، 682/5)، ثم كان ممّن آل إليه الأمر في تدبير شؤون إشبيلة قبيل سقوطها.

3- القضاء:

إنّ مهنة القضاء– كما يتضح من تراجم أدباء الأندلس وغيرهم– مرموقة في المجتمع الأندلسي، ومعلوم في التاريخ الفكري للأندلس ما للفقهاء والقضاة من شأن في تسيير الرأي العام الذي أسهم في بعض الأحيان في إسقاط عروش وإعلاء أخرى، وإعدام علماء، وحرق كتب عدّوها منافية لتعاليم الشرع مخرجة لأصحابها من الملّة، وقد "كانت الأدوات الفقهية والأدوات الأدبية من أهم ما يتوسل به إلى نيل الوظائف وإدراك الخطط، فالأدوات الأولى تؤدي إلى التوثيق وما فوقه من نيابة وقضاء ونحو ذلك، والثانية تقود إلى الكتابة في الدواوين وما يتصل بها" (ابن عبد الملك، 1984م، 64/8).

إنّ طبيعة التعليم هذه تجعل المتعلم موسوعيّا متعدد المجالات العلمية، والمعارف السائدة في عصره، وتفتّق في مواهبه الدبية، ومن هنا استثمر الأدباء طاقاتهم المعرفية وعلومهم المكتسبة في حياتهم فوظفها بعضهم باتخاذها مصدر رزق لهم. فعلى سبيل المثال نجد أديبا عالما كأحمد بن علي بن أحمد القرطبي كان قاضيا ومشرفا على جبايات السلطان وعاقدا للشروط – وهي مهنة منتشرة بين المتعلمين آنذاك– وكاتبا للولاة، ويقول عنه المراكشي " كان محدثا راوية مكثرا عاقدا للشروط فاضلا أديبا شاعرا مطبوعا رجّز السِّيَر فأجاد فيها وكتب عن بعض ولاة قرطبة واستقضي بغير موضع من بلاد الأندلس وبلاد إفريقية ثم استُعمل في الإشراف على المجابي السلطانية..." (ابن عبد الملك، 294/1)، وعلي بن عبد الله بن يوسف المعافري كان أديبا وعاقدا للشروط واستُقضي بأشبيلية (ابن عبد الملك، 1965م، 238/5)، وأحمد بن حسن بن سيد كان قاضيا ومؤدبا لأبناء عبد المؤمن بن علي الموحدي (ابن عبد الملك، 92/1–93)، وعلي بن محمد بن حسن الأنصاري الإشبيلي كان أديبا كاتبا وقاضيا وولي خطة الإشراف في نواحي مراكش (ابن عبد الملك، 1965م، 301/5)، وأبو الخطاب محمد بن أحمد بن خليل اللبلي الذي كان كاتبا عن أمراء إشبيلية وعاقدا للشروط (ابن عبد الملك، 1965م، 632/5)، وعصام بن أحمد الكتامي القرطبي الذي كان أديبا وخطيبا ومعلما (ابن عبد الملك، 1965م، 148/5)، وعلي بن أحمد الأزدي، وهو أديب شاعر كاتب عاقد للشروط، ثم تولى منصب القضاء، وهو من الأدباء الذين ردّوا على ابن غرسية في رسالته الشعوبية (ابن عبد الملك، 1965م، 154/5)، وعبد الوهاب بن علي القيسي، وقد "كان فقيها عاقدا للشروط ريان من الأدب مجيدا في النظم والنثر...ولي الصلاة والخطبة بجامع مالقة" (ابن عبد الملك، 1965م، 76/5) ومحمد بن إسماعيل بن سعد السعود بن عفير الأموي، وهو شاعر وكاتب "تلبّس طويلا في الأندلس ومراكش بعقد الوثائق...واسْتُقْضي ببلد نفيس من أحواز مراكش، ثم بالسوس" (ابن عبد الملك، 1973م، 119/6)، ومحمد بن أغلب بن أبي الدّوس الذي كان معلما للناس ومؤدبا لأبناء الملوك، وقد "تجول كثيرا يُعلِّمُ ويُقْرئ، وأدَّب الفتح المأمون ويزيد الراضي ابني

المعتمد بن عبّاد" (ابن عبد الملك، 1973م، 134/6)، ومن الأدباء القضاة محمد بن علي بن باز اليحصبي البلنسي الذي "كان فقيها حافظا ذاكرا للمسائل، شوور ببلده واستُقضي به، وكان أديبا شاعرا، قدم مراكش أيام أبي يعقوب بن عبد المؤمن وامتدحه بقصائد مطولة أجاد فيها ما شاء" (ابن عبد الملك، 1973م، 439/6)، ومحمد بن علي الغساني، وهو من الشعراء المدّاحين، وقد كان " مقرئا... نحويا...ذا حظ صالح من رواية الحديث...فقيها مشاورا...سريع القلم والبديهة في إنشاء نظم الكلام ونثره...ولي قضاء مالقة" (ابن عبد الملك، 1973م، 450/6)، وأبو عبدالله بن الصقر الذي ترقى في الوظائف من الوراقة إلى القضاء بالنيابة، ثم آثر العزلة والانقباض عن الناس، وله أشعار كثيرة في الزهد والحكم.

يتضح في ترجمة محمد بن يخلفتن الفازازي أن مهنة القضاء أرفع من مهنة الكتابة عند السلطان وأهمّ، يستفاد ذلك من قول ابن عبد الملك المراكشي: "وكان من بيت علم ونباهة حافظا للحديث...ذا حظ من الفقه، وتقدم في معرفة الآداب وذكر التواريخ واللغات، كاتبا بليغا، شاعرا مجيدا، بارع الخط، وقورا...ولما رآه الناصر من بني عبد المؤمن في وقاره وتؤدته أمر بإعفائه من الخدمة بالكتابة **وترفيعه عنها** وتخييره القضاء في أي بلاد الأندلس شاء، فاختار قرطبة...واستُقضي بمرسية...ثم استُقضي بغرناطة ثم قدم قرطبة واستُقضي بها إلى أن توفي سنة 611هـ" (ابن عبد الملك، 1984م، 362/8).

يبن هذا النص أن مهنة القضاء رفيعة في نظر السلطان، وهي أرقى من مهنة الكتابة عنده، وإذا تأملنا صفات كالحفظ، وتوارث العلم، والفقه، والأدب، وبلاغة الكتابة، وإجادة الشعر، وبراعة الخط، فإننا نجدها مؤهلة لصاحبها لمهنتي: القضاء، والكتابة عند السلطان، ثم جاء ذكر صفة ذاتية قد لا يكتسبها كل متعلم ملم بهذه المعارف والصفات السابقة، وهي الوقار، ولعلها الصفة الخُلقية التي رفعت صاحبها لمنصب القضاء دون غيره، وهو ما لاحظه الناصر وجعله سببا في الترقية الوظيفية، وهو يعكس جانبا آخر لشخصية الأديب الكاتب، فهو لا يُشترط فيه الورع والوقار مادامت أدواته الكتابية متوفرة لتحقيق الغاية منها، وقد عُرف كثير من أدباء الأندلس –شعرائهم وكتابهم– بروح التبسط والمرح.

4– عقد الشروط:

ترتبط مهنة تحرير الوثائق والشروط بالنظام القضائي في الأندلس، ولم تكن حكرا على فئة معينة من المتعلمين، لذا ارتاد سوقها العلماء وطلاب العلم متنافسين في مضمارها؛ بغية الكسب المادي والارتقاء الوظيفي، فقد كان "النظام

القضائي في الأندلس يترك الناس أحرارا في اختيار من يقوم بتحرير ما يتعاقدون عليه من شروط، إذ لم يكن للحكومة أصحاب شروط (موثقون) رسميون" (بالنثيا، ص441).

من هنا كانت هذه المهنة أقل رتبة من مهنة القضاء وما جاورها ومن مهنة الكتابة عن السلاطين وما تعلق بها، فهي متاحة لكل متعلم يجيد الصياغة، وقد اتخذها أدباء كثيرون مصدرا رزق لهم، وقد ورد ذكر (الدّكّان) مقترنا بهذه المهنة في بعض تراجم الأندلسيين المشتغلين بها (ابن عبد الملك، 306/1، 326)؛ مما يدل على أنها كانت مصدر كسب قار ودائم؛ لذا راج سوقها بين أوساط الأدباء والعلماء، كعلي بن أبي غالب العبدري الذي كان "بصيرا بعقد الشروط، أديبا بارعا" (ابن عبد الملك، 1965م، 424/5)، ومحمد بن أحمد القيسي الرندي الذي كان "من أبرع الناس خطا، عاقدا للشروط" (ابن عبد الملك، 1973م، 62/6)، وأبو الربيع سليمان بن حكم، وهو إلى كونه شاعرا وكاتبا كان "كبير عاقدي الشروط بقرطبة يقعد لذلك بدكّان غربي المسجد المنسوب إلى بدر" (ابن عبد الملك، 63/4–64)، وأبو إسحاق المعروف بالطّويجِن الذي كان "موثقا بسماط شهود غرناطة" (المقّري،1988م، 194/2)، وغيرهم (ابن عبد الملك، 1/ 326). كما أنه يمكن مزاولة هذه المهنة في أماكن أخرى غير الدكان الذي قد لا يجد صاحب المهنة مالا لشرائه أو استئجاره؛ لغلاء الثمن، فيمارس موثق الشروط عمله في بيته أو في السوق أو حيث يكثر المارة؛ ليسهل وصولهم إليه (ريبيرا، 1994م، ص56)، لذلك تكثر في تراجم أصحاب هذه المهنة عبارة: (كان يجلس لعقد الشروط) (ابن الأبار، 1956م، 861/3)، أو ما في معناها.

مما سبق يمكن القول بأن مهنتي: الكتابة السلطانية، والقضاء، تحتاجان إلى أدوات ومؤهلات علمية واجتماعية كموسوعية المعرفة، وبلاغة الكتابة، وجمال الخط، وغير ذلك من أدوات، وكالورع والوقار في منصب القضاء، ولعل كون الرجل من بيت علم يزيد من فرصة الحصول على وظيفة، أما مهنة عقد الشروط فقد كانت مشاعة لطبقات الأدباء والمتعلمين والعلماء الذين برز بعضهم بهمته وعلمه فيها من غير اتكاء على حسب متوارث كمحمد بن حسن الفهري السّبتي الذي "كان أديبا كاتبا بليغا ناظما وناثرا، عاقدا للشروط، مبرزا في العدالة" (ابن عبد الملك، 1984م، 289/8)، وقد كتب عن بعض الأمراء في شبيبته، ووَلِي القضاء وعرف بسمته ووقاره، وحسن هيأته وأخلاقه، وهو ممّن ساد بنفسه كما عبر ابن عبد الملك المراكشي في ترجمته له، وذكر أن أباه كان من المغنين في الأسواق والمحافل. (ابن عبد الملك، 1/ 290)

وهذا يوضح أن التلبّس بهذه المهنة قد يكون مفضيا بصاحبها إلى درجات وظيفية حكومية عليا؛ كمنصب القضاء (ابن عبد الملك، 1/ 309)، ولعل هذا ما يفسر اتّخاذ الدّكاكين لهذا الغرض حتى يُعرف صاحب المهنة بمكانه وإن

كان ذا عمل آخر مع هذا العمل، كما هو الحال عند يوسف بن يحيى ابن الحاج الذي "كان أبدا يكتب عن الولاة، ويقعد في دكانه لعقد الشروط، ويكتب أزمة المجابي السلطانية" (ابن عبد الملك، 1984م، 489/8)، إذ يبدو أن عقد الشروط في الدكان ضامن لصاحبه الاستمرار والدوام في العمل، أما العمل مع السلاطين والأمراء– وإن كان رفيعا مرموقا– فإنه قد يتلاشى بين عشية وضحاها لا سيما مع ما عرفته الأندلس من تقلبات سياسية مستمرة، وتآمرات ووشايات أودت بكثيرين من أهل العلم والسلطة. ويبدو أن هذه المهنة قد تفاوت فيها المنتسبون إليها من حيث التحصيل المالي، فلم يكونوا سواء في ذلك، فذا أبو القاسم البلوي لازمته فاقة في آخر عمره "وبقي في حال ضعيفة يرتزق من عائد إليه في عقد الشروط لم يكن يفي بأقل مؤنة" (ابن عبد الملك، 359/1)، وربما كان ذلك لعدم تمكنه من اتخاذ دكان لمزاولة هذه المهنة، إذ يبدو أن اتخاذ محل قار لها يسهم في انتعاشها ومردودها المادي.

5– الوراقة:

تأسيسا على ما ذاع عن الأندلسيين من حبهم للعلم، وتأسيسهم للمكتبات، وتهافتهم على اقتناء الكتب ، وتفاخرهم بتجليدها وخطها ونسخها وحرصهم على كل ذلك إمّا تفاخرا أو رغبة صادقة في العلم والسعي في تحصيله؛ كانت مهنة الوراقة رائجة ومهمة في المجتمع الأندلسي. فعرفت مكانة الوراقين فيه، الذين لم يكتفوا بنسخ الكتب فقط بل امتهنوا بيعها "فكان لكل ورّاق حانوت أو دكان، يجري فيه عملية نسخ الكتب وبيعها، وازدهرت تجارة الكتب في الأندلس...وأصبحت مهنة الوراقة عملا تجاريا مربحا، واشتغل بها علماء وأدباء أجلاء، وأصبح الورّاق مديرا لهذا العمل، ينتج الكتب إما بناء على الطلب من ذوي الحاجة إليها، وإما بهدف بيعها في السوق المفتوح" (دياب، 1998م، ص67).

قد انخرط في سلك هذه المهنة عدد من أدباء الأندلس كأبي العباس أحمد بن خلف بن فرتون الشنتريشي الغرناطي الذي "كان ورّاقًا يبيع الكتب" (ابن عبد الملك، 109/1)، ومحمد بن عامر بن فرقد الإشبيلي الذ كان "وافر الحظ من الأدب يقرض مقطعات الشعر ويجيد فيها، رائق الوراقة كثير الدءوب على النسخ ليلا ونهارا" (ابن عبد الملك، 1973م، 324/6)، إن هذه المهنة تستوجب الاشتغال على النسخ وتجويده، وقد اشتهر ابن فرقد بحرصه على ذلك "حتى إنه متى دُعي إلى موضع لعقد وثيقة أو شهادة فيها استصحب ما ينسخ، فإن أمكنت مهلة... شرع في نسخه" (ابن عبد الملك، 1973م، 424/6)، فالوراقة عنده مهنة مصاحبة لعقد الوثائق، وهذا يظهر تعدد المهن عند الأديب وهي مهن متقاربة في متطلباتها واشتراطاتها من إجادة الكتابة والبراعة فيها وجمال الخط وحسن النسخ وإتقان الصياغة، ومن جانب اقتصادي قد تشير هذه الظاهرة إلى قلة المردود المادي لمهنة واحدة، فلجأ الأديب إلى مهنة أخرى لا تبعد في ملكاتها من مهنته؛ ليضمن بذلك تعدد مصادر الكسب، كما هو الحال عند الأديب الفقيه محمد

بن أحمد المراكشي الذي كان عاقدا للشروط وورّاقا ثم قاضيا بالنيابة (ابن عبد الملك، 1984م، 263/8). ومن الوراقين محمد بن أحمد بن محمد السبئي، وهو ابن أخت الكاتب أبي الحسن علي بن عيّاش القرطبي (ابن عبد الملك، 1984م، 264/8)، فقد عُرف محمد هذا بأنه "بارع الخط، رائق الطريقة، أنيق الوراقة متقن التقييد...نسابة لخطوط المشايخ، كثير الإحكام لأموره وأدواته كلها"(ابن عبد الملك، 1984م، 265/8).

قد أدى الوراقون دورا مهما " في إنتاج الكتب في الأندلس حيث كانوا ينسخون الكتب للمؤلفين، فقد كان من الشائع آنذاك أن يكون للمؤلف ورّاقه الخاص، كما كانوا حلقة وصل بين المؤلفين والجمهور، وكذلك نسخوا المؤلفات القيمة للأمراء والأغنياء الذين يرغبون في تأسيس مكتبات لهم" (دياب، 1998م، ص60)، ومن مظاهر الشغف بالنسخ ما كان من أبي بكر الكناني وأبي العباس الحضرمي اللذَين رحلا للحج وعرجا على طلب العلم في رحلتهما، ثم رجعا للأندلس صحبة كتب لا عهد للبلاد بها "انتسخاها هنالك، وتوافقا على أن ينسخ أو يقابل أحدهما غير ما ينسخه رفيقه أو يقابله استعجالا لتحصيل الفائدة" (ابن عبد الملك، 29/1)، ومن الوراقين محمد بن عبد الملك الطائي المرسي، وهو شاعر وورّاق وناسخ (ابن عبد الملك، 1973م، 366/6)، وعلي بن عبد الله الأنصاري الإشبيلي الذي قال فيه ابن عبد الملك المراكشي: "وقفت على نسخ كثيرة مما ذكرته بخطه لما كان يرغب فيه في ذلك وينافس له في ثمنه" (ابن عبد الملك، 1965م، 232/5)، فهو يمتهن نسخ الكتب وبيعها، وقد تبين مما سبق اشتراطات هذه المهنة من جمال الخط والحرص على النسخ ليلا ونهارا، وإتقان أدوات المهنة كالمعرفة بخطوط العلماء ونسبة كل خط إلى صاحبه، فهي مهنة تحتاج صبرا واستمرارا لاكتساب خبرة فيها، وامتلاك أدوات إجادتها. ومن شدة الحرص على هذه المهنة وأدواتها وجه الشاعر محمد بن عبد الله اللخمي نصيحة شعرية يدعو فيها إلى إجادة الخط وتجميله وتبيينه، فيقول: (ابن عبد الملك، 1973م، 251/6)

الوافر

فلا تكتبْ يَمينُكَ غيرَ خطٍّ بهِيٍّ بَيِّنٍ صحَّتْ يمينُكْ

ولا تَكْتُبْ بِها خَطًّا دَقيقًا فَأحْوَجُ ما تَكونُ لهُ يَخونُكْ

ومن الطريف أن يوظف الشاعر الكاتب عامر بن هشام الأزدي القرطبي هذه المهنة في بناء صورة شعرية محكمة عن مراحل الشيب، فلون شَعْره كنصاعة القرطاس في بياضه، وقبل ذلك كان أسودا كالحبر، ثم صار مختلطا بين السواد والبياض، كاختلاط اللونين في قرطاس بسبب الكتابة، ويختم القطعة بتساؤل عن هذا الدهر: حتام يمتهن الوراقة؟. فقال:

البسيط

مبْيَضٌّ شَعْري كالقرطاسِ ناصعهُ وقبْلَ ذا كان لونُ الحبْرِ برّاقا

وصار مِنْ شَمَطٍ يحكيهِ مكتتبًا حتى متى كان هذا الدّهرُ ورّاقا

يتضح من تراجم من لزموا هذه المهنة، ومهنة عقد الشروط أيضا، أن لهم نظاما يجمعهم، وكبيرا يرجعون إليه، ففي قول المؤرخين (كبير عاقدي الشروط) أو (كبير الوراقين) مثلا، ما يشي بذلك، ويؤكد الدكتور حامد الشافعي دياب أنه كان للوراقين "نقابة لهم يرأسها شيخ له مركزه الاجتماعي ونشاطه المشهود في المهنة، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه (اتحاد الناشرين) بمصطلحات هذا العصر...كما كانت لهم أماكن ثابتة تعرف بشارع الوراقين في كل من قرطبة وإشبيلية والمدن الكبرى في الأندلس" (دياب، 1998م، ص67).

6- التدريس:

من أقرب المهن مزاولة للعلماء والأدباء التدريس بعد أن أمضوا زمنا في طلب العلم والرحلة لأجله، فثمة من تصدر لتدريس الأدب، وثمة من تصدر للإقراء، ومن الأدباء من نال مكانة تؤهله لتأديب أبناء الملوك والأمراء، فمن المعلمين من وصل اكتسابه من الطلاب في الشهر أكثر من أربعة آلاف درهم (عيسى، 1982م، ص363)، إلا أن هذه المهنة لم يكن المنتسبون إليها سواسية من حيث العائد المادي، فطلحة بن محمد بن طلحة "انتصب للإقراء، وتدريس العربية... صابرا على شدة الفقر وقلة ذات اليد" (ابن عبد الملك، 166/4)، ومنهم من كان التدريس مهنة مصاحبة لغيرها عنده كعبيد الله بن المظفر الذي علم الصبيان وخدم السلطان وزاول الطبّ أيضا (المقّري،1988م، 638/2)، ومحمد بن علي الغساني الذي أقرأ وعمل فقيها مشاورا وولي القضاء (ابن عبد الملك، 1973م، 439/6)، ومن المعلمين أحمد بن محمد المعافري القرطبي الذي "تصدّر لتدريس ما كان عنده من فنون ومعارف" (ابن عبد الملك، 450/1)، ومن الشعراء المعلمين أحمد بن محمد الأزدي القرطبي، وهو إلى ذلك كان قاضيا، وثمة من التزم التدريس ولم يزاحمه بمهنة أخرى كعلي بن جابر الإشبيلي الذي "عكف على إقراء القرآن وتدريس العربية والأدب نحو خمسين سنة لم يتعرض لسواه ولا عرج على غيره نزاهة عن الأطماع وأنفة من التعلق بالدنيا وأهلها" (ابن عبد الملك، 1965م، 199/5-200)، ولا عجب مع من هذه حاله أن ينأى بنفسه عن مدح الملوك والأمراء وقد اشتهر علي بن جابر هذا بأنه لم يمدح بشعره، نزاهة لنفسه.

أما المؤدبون فقد كانوا أفضل حالا من بقية المعلمين، لأنهم يصطفون لتأديب أبناء الطبقة الارستقراطية من ملوك وأمراء ووجهاء، كما أنه ثمة شروط ينبغي وجودها في شخصية المؤدب؛ ليقوم بهذه المهنة، فلابد أن يكون المؤدب

من أعلى الناس درجة في العلم، ومن المشهود لهم بذلك، كما يشترط فيه الجانب الأخلاقي، فهو قدوة لأبناء الملوك والأمراء والوجهاء (عيسى، 1982م، ص229–232).

من المؤدبين أبو محمد عبد الله بن بكر الكلاعي، وهو أديب شاعر أدّب أولاد عبد الرحمن بن الحكم.(عيسى، 1982م، ص430)، وحسين بن وليد بن نصر القرطبي الذي كان شاعرا مادحا ومتكلما ونحويا، وقد استأدبه المنصور لبنيه، وقربه من صحبته (عيسى، 1982م، ص431)، وأحمد بن حسن بن سيد الجراوي الذي اشتغل بتأديب أبناء أبي محمد بن عبد المؤمن بن علي الموحدي (ابن عبد الملك، 92/1–93)، وأحمد بن محمد القيسي الجياني الذي أدّب كثيرا بمرسية (ابن عبد الملك، 92/1–93)، وغيرهم كثر ممن أدب أبناء الطبقة الارستقراطية في الأندلس وممن كانت يُتوخَّى في اختيارهم شرطا العلم والخلق، وإذا ما ظهر من المؤدب ما يخلّ بأحدهما أُعفي من عمله، كما حدث مع أبي بكر العبدري القرطبي الذي أنشد ثلاثة أبيات في الغزل بالمذكر– على سبيل التبسط– في حضرة عبد المؤمن بن علي الموحدي، فكان ذلك سببا في هجر عبد المؤمن له، "ومنعه من الحضور في مجلسه بل وصرف بنيه عن القراءة عليه" (عيسى، 1982م، ص433).

7– الطبّ:

لم يكن علم الطب وحده الرائج في الأندلس، فاهتمام الأندلسيين اتسع ليشمل علوما كثيرة كالصيدلة والهندسة والفلك وغير ذلك، إلا أن لعلم الطب حضورا جليا في تراجم أدباء الأندلس، فثمة شعراء ووشاحون وزجالون عرفوا بهذه المهنة، وثمة بيوت علم توارثتها كابرا عن أكبر كبني زهر، ومنهم أبو بكر الحفيد الذي أخذ الطب عن أبيه وكان يطبب الناس حسبة ويعطيهم ما عزَّ وجوده من أدوية تبرعا (ابن عبد الملك، 1973م، 399/6)، وهو شاعر وشاح مشهور من بيت علم ورئاسة، ومؤلفات الأطباء الأندلسيين في الطب وعلومه كثيرة جدا، ومن برع في هذا المجال لاقى تقديرا رسميا وشعبيا، "فقد كانوا يجلون ويرفعون أحيانا إلى مرتبة الوزارة" (السعيد، ص75)، كابن زهر سالف الذكر (عنان، 2001م، ص713)، ومن أهل الأدب المشتغلين بالطب ابن جَوْشَن الأزدي(فرحات، وعيد، 2000م، ص227)، وأبو الحكم بن عبيد الله المعروف بالمغربي الذي" كان متقنا للصناعة الطبية" (المقّري،1988م، 135/2)، وأبو بكر محمد بن العوام الإشبيلي الذي اشتهر بالأدب وصناعة الطب (ابن سعيد،1980م، ص177)، وابن مفرج الإشبيلي الذي اشتهر بعلم أنواع الحشائش (ابن سعيد،1980م، ص179)، وأبو جعفر القضاعي وهو من المتحققين بعلم الطب وله تأليف فيه (المقّري،1988م، 383/2)، وعبيد الله بن المظفر الباهلي الذي عمل طبيبا في المارستان (المقّري،1988م، 683/2)، ومن الطريف أن أحدهم هجاه بقوله: (المقّري،1988م، 683/2)

السريع

لنا طَبيبُ شاعِرٌ أعْورُ أراحنا مِنْ طِبِّهِ اللهُ

ما عادَ في صبْحَةِ يَوْمٍ فتًى إلّا وَفي باقيهِ رثّاهُ

ومن الأدباء الأطباء الشاعر سعيد بن إبراهيم بن محمد بن عبد ربه القرطبي الذي عرف بمهارته في الطب وله فيه أرجوزة، وقد عُرف بانقباضه على الملوك، فلم يخدمهم بطبه، وله شعر في مهنته منه قوله: (ابن عبد الملك، 26/4)

الكامل

لَمَّا عَدِمْتُ مُؤانِسًا وجَليسًا نادَمْت بُقْراطًا وجالينُوسا

وَجَعَلْتُ كُتْبَهُما شِفاءَ تَفَرُّدي وَهُما الشِّفاءُ لِكُلِّ جُرْحٍ يُوسَى

والشاعر عريب بن سعيد القرطبي اشتهر بمهارته في الطب أيضا (ابن عبد الملك، 1965م، 142/5)، وأبو الحسن علي بن عبد الله الذي كان "أديبا حافظا شاعرا محسنا كاتبا بارعا، ذا مشاركة في الطب وتقدم في معرفة النبات، وله (شرح في كتاب دياسقوريدوس) أفاد به، وضبط كثيرا من أسماء الأدوية المذكورة فيه" (ابن عبد الملك، 1965م، 239/5)، وعبد الله بن غَلنِدة الأموي السرقسطي، وهو أديب شاعر بارع في الطب (ابن الأبار، 1989م، ص124، وعنان، 2001م، ص712)، وأبو بكر محمد بن علي بن سليمان بن رفاعة الجذامي الشريشي(عنان، 2001م،714)، وهو أديب فقيه طبيب ماهر "موفق العلاج... صنف في الطب كتبا نافعة منها (منجاة الأطباء) ورجّز للمنصور أدوية الترياق المركب من خمسين دواء" (ابن عبد الملك، 1973م، 446/6)، والوشّاح الطبيب أبو الحجاج يوسف بن عتبة، وقد كان طبيبا في المارستان، وأديبا وشّاحا(ابن سعيد،1980م، ص164)، وأبو بكر محمد ابن طفيل القيسي، وهو طبيب أديب شاعر (ابن الأبار، 1989م، ص125).

يظهر مما سبق اهتمام طائفة من أدباء الأندلس بالطب، واعتمادهم عليه مهنة أساسية مصاحبة لإبداعهم الأدبي.

المبحث الثاني: حرف متنوعة للأدباء المتعلمين وغير المتعلمين.

سأجمل هنا الحديث عن حرف متنوعة لا علاقة لها بالمستوى التعليمي، فجميع الأندلسيين فيها سواء، وقد اتخذها بعض الأدباء مصدر كسب لهم، من هذه الحرف:

1- الحياكة:

وهي حرفة منتشرة في المجتمع الأندلسي، ومن روادها الأديب أبو بكر الخزرجي الذي "كان لا يأكل إلا من كسب يده، يخيط الثياب، فازدحم الناس عليه تبركا به، فترك ذلك وصار يدق القصدير ويأكل منه ويتصدق بما فضل عنه" (المقّري،1988م، 213/2)، والشاعر الرصافي البلنسي الذي كان والده يحترف الرفو، ويرجح أنه "أورث ابنه هذه المهنة من بعده إذ دربه عليها في أثناء حياته" (البلنسي،1989م، ص9)، وقد "كان رفاء يعمل بيده" (ابن عسكر، وابن خميس، 1999م، ص93)، و"اقتصر على التعيُّش من صناعته. وأمداحه قليلة" (ابن الأبار، 1989م، ص109)، وقد اشتهر بحرفة الرفو والبعد عن مدح الملوك (ابن الأبّار،1989م، 46/2)، وممن اشتهر بالرفو أبوعلي حسن بن عبد الرحمن الكتاني (633هـ) من أهل مرسية وهو "صاحب مقطعات وتذييلات حِسان" (ابن الأبار، 1989م، ص210).

2- الفلاحة:

لم تكن الفلاحة حرفة فقط بل كانت علما ألفت فيه المؤلفات، وقد ازدهرت ازدهارا كبيرا (الشطشاط،2001م، ص109)، "وخطت العلوم الزراعية في الأندلس خطوات واسعة، حيث كانت الزراعة عماد الحياة الاقتصادية في تلك البلاد، وكانت الزراعة تسمى في ذلك الوقت باسم الفلاحة" (دياب، 1998م، ص47)، ومن الأدباء من عاش على الفلاحة، كأحمد بن إبراهيم ابن الحاج اللخمي الذي "كان أديبا كاتبا بليغا شاعرا مجودا... قانعا في معيشته بما يستفيده من ضيعة ورثها عن أبيه ليست بالعظيمة الجدوى صان بها نفسه" (ابن عبد الملك، 33/1)، وأمر ابن الحاج اللخمي يتفق مع كثير من أدباء الأندلس، حيث نجد طائفة منهم يتجنبون التزلف إلى السلاطين وأهل السياسية؛ بغية الكسب المادي، فمنهم من كان يخدم السلاطين ثم ترك ذلك زهدا وورعا، ولجأ إلى مصدر كسب آخر، وكأنهم يرون شبها مالية في الكسب من الملوك، فيتورعون عن ذلك ويلجأون إلى مصدر كسب غيره وإن كان عائده المالي قليلا، كأبي جعفر أحمد بن عبد الرحمن اللخمي القرطبي الذي "كتب للولاة ثم قعد عن الخدمة والتزم عمارة أرضه متعيِّشًا من غلّتها، إلى أن توفي" (ابن الأبار، 1989م، ص178)، وكأبي عامر ابن مسلمة الشاعر الذي "لم يرق ماء وجهه بل عاش بفضل وفرة وتصون لأملاك قديمة كانت له بإشبيلية ورثها عن أجداده" (عيسى، 2009م، ص190).

3- الصناعة اليدوية:

انتشرت الصناعات في الأندلس على اختلاف أنواعها، فثمة الصناعات الثقيلة كصناعة السفن والأدوات الحربية، في دار القطائع، وكانت هناك صناعات خفيفة يقوم بها الأفراد بأنفسهم.

وقد ذُكِر عن بعض الأدباء أنه كان يخرج للإقراء وفي يده أثر المطرقة (المقّري،1988م، 77/2)، فالعمل اليدوي امتهنه الأدباء والعلماء الأندلسيون، ورأوا فيه وسيلة للكسب المادي بعيدا عن شبهات مال الملوك والرؤساء، وذا أحمد بن علي بن حكم القيسي "يتعيّش ممّا يعود عليه في عمل مراوح الحلفاء وما يشبهها" (ابن عبد الملك، 305/1)، وأبو الحسن علي بن يحيى الكناني الفخار كان "أديبا كتب الكثير وأتقن تقييده، واشتهر بالطهارة والعفة والصيانة، وكان أحيانا يعمل مع أبيه في الفِخَارة" (ابن عبد الملك، 1965م، 421/5)، وعلي بن يوسف الأنصاري كان نجارا (ابن عبد الملك، 1965م، 426/5).

4– التجارة:

هي حرفة قديمة، ومن أهل الأدب والعلم في الأندلس من كان عطارا يمتهن تجارة العطور، كأحمد بن عبد المجيد بن سالم بن تمام المالقي الذي تحرّف بالتجارة في العطر واشتهر بأن رائحة العطر تضوع منه (ابن عبد الملك، 260/1)، ومحمد بن إبراهيم الغساني الذي كان متحرّفا بالتجارة في حانوته في إحدى القيساريات، وكان يقعد في حانوته كل يوم بعد الفراغ من مجلس تدريسه (ابن عبد الملك، 1984م، 270/8)، ومن الأدباء التجار محمد بن يحيى العبدري، الذي كانت لديه بضاعة يتحرف بها ويتجول بها في الأندلس (ابن عبد الملك، 1984م، 513/8)، وأحمد بن علي االماردي الذي "كان يتصرف أثناء قراءته وإقرائه بالتجارة مسافرا" (ابن عبد الملك، 290/1).

5– الجِزَارة:

تعد الجزارة أو القصابة من المهن العامة التي يمكن أن يرتادها المتعلمون والأمّيّون، والشاعر الأندلسي الذي اشتهر بالجزارة: يحيى الجزار السرقسطي حيث كان "في دكان يبيع اللحم فتعلقت نفسه بقول الشعر فبرع فيه، وصدر له أشعار مدح بها الملوك من بني هود ووزرائهم، ثم ترك الأدب والشعر، واعتكف على القِصَابة، فأمر ابن هود وزيره ابن حَسْداي أن يوبخه على ذلك، فخاطبه بأبيات منها": (ابن سعيد، 445/2).

الوافر

تَرَكْتَ الشعْرَ مِنْ ضَعْفِ الإصابَهْ وعُدْتَ إلى الدَّناءَةِ وَالْقِصابَهْ

فأجابه الجزار:

تَعيبُ عَلَيَّ مَأْلوفَ القِصابَهْ وَمَنْ لَمْ يَدْرِ قَدْرَ الشَّيْءِ عابَهْ

وَلَوْ أَحْكَمْتَ مِنْها بَعْضَ فَنٍّ لَمَا اسْتَبْدَلْتَ منْها بالحجابَهْ

إن يحيى الجزار في ردّه هذا لا يدافع عن تجارته في بيع اللحم، أو تكسبه من القصابه فقط، بل يحاجج في ذلك ويجعل أمر القصابة أجدى نفعا من مدح الملوك الذين قد يبخلون في العطاء عند حاجة الشعراء إليهم، وهو بهذا يسجل موقفا ثقافيا أدبيا من التكسب بالشعر الذي تركه ليعود لجزارته التي وجد فيها ذاته التي نأى بها عن مظانّ السوء عند أبواب الملوك، وقد قال في ذلك من القصيدة نفسها: (ابن سعيد، 445/2)

وَحقِّكَ ما تَرَكْتُ الشِّعْرَ حَتَّى رَأَيْتُ البُخْلَ قَدْ أذْكى شِهابَهْ

وَحَتّى زُرْتُ مُشْتاقًا حَبيبًا فأبْدى لِي التَّجَهُّمَ والْكَآبهْ

فظَنَّ زيارَتي لِطِلابِ شَيْءٍ فنافَرَني وَأغْلَظَ لِيْ حِجابَهْ

وقد حدث أن مرّ الوزير ابن عمّار على يحيى السرقسطي، "ولحم خرفانه بين يديه، فأشار ابن عمار إلى اللحم وقال: (المقّري،1988م، 609/3).

لحمُ سِباطِ الخرْفانِ مَهْزولُ

المنسرح

فقال:

يَقولُ يا مشترين مَهْ زولُوا

6- الصّباغة:

هي مهنة لا تستوجب علما ولا أدبا، انخرط في سلكها عدد من أبناء الأندلس، من بينهم الشاعر الأديب ابن جاخ، وهو من الشعراء الأمّيّين (المقّري،1988م، 452/3)، وأورد المقّري حكاية في سبب اشتهاره بين الشعراء، فقال في سبب ذلك إنّ الوزير أبا بكر ابن عمار "كان كثير التّطلّب لما يصدر عن أرباب المهن، من الأدب الحسن، فبلغه خبرُ ابن جاخ هذا قبل اشتهاره، فمرّ على حانوته وهو آخذ في صباغته، والنيل قد جرّ على يديه ذَيْلا، وأعاد نهارَهما ليلا، فأراد أن يعلم سرعة خاطره، فأخرج زَنْدَه ويده بيضاء من غير سوء، وأشار إلى يده، وقال:

كَمْ بَيْنَ زنْدٍ وَزندِ

فقال:

ما بَيْنَ وَصْلٍ وَصَدِّ

فعجب من حسن ارتجاله" (المقّري،1988م، 608/3)، وعرف بالصباغة الشاعر أبو إسحاق إبراهيم بن خيرة الصبّاغ (الحميدي، 1989م، 238/1).

المبحث الثالث: مهن أخرى، ومهن أديبات الأندلس.

1- مهن أخرى:

لاغرو أن ثمة مهنا كثيرة طرق بابها أدباء الأندلس بغية الكسب المادي، وما توفر من هذه المهن في ما وصل إلينا – واطلعت عليه– من تراث الأندلس مهنة الحسبة التي تعتبر مرموقة في ذلك الوقت، وهي مهنة يكلف صاحبها من الدولة، ومن الأدباء الذين تولوا هذا المنصب عبد الله بن إبراهيم التطيّلي الذي "كان أديبا شاعرا محسنا وولي حسبة السوق بمراكش فحمدت سيرته" (ابن عبد الملك، 178/4)، ومن هذه المهن الجندية، وهي التحاق الأديب بصفوف جند الدولة، وهو مصدر رزق لمن يستطيع المحاربة، ومن الأدباء الذين انتظموا في سلك الجند عبد الله بن الجِبّير بن عثمان اليحصبي، الذي كان "بارعَ النظمِ والنثر... فارتسم حينئذ في عسكر المأمون بن المعتمد بن عباد" (ابن عبد الملك، 189/4)، والكاتب أحمد بن محمد بن حزم الإشبيلي (ابن عبد الملك، 308/1)، ومن هذه المهن رئاسة المكتبة كما هو الحال مع علي بن لبّ بن علي بن شلبون الذي وُظِّف خازنا لإحدى المكتبات (ابن عبد الملك، 1965م، 274/5).

2- مهن أديبات الأندلس:

اشتهر عدد من أديبات الأندلس بمهن تكسبن بها، وهي مهن وطيدة الصلة بمجال العلم، فعرف الأندلس أديبات مهنتهنَّ الكتابة كأميمة الكاتبة (ابن عبد الملك، 1984م، 483/8)، ورقية بنت الوزير تمام بن عامر بن أحمد بن غالب، وقد "كانت كاتبة لابنة الأمير المنذر بن محمد" (ابن عبد الملك، 1984م، 485/8)، والكاتبة الحاذقة زمرد (ابن عبد الملك، 1984م، 485/8)، وكتمان القرطبية، "من جواري قصر الخلافة المتصفات بالفهم وهي كانت كاتبة عن الناصر عبد الرحمن" (ابن عبد الملك، 1984م، 491/8)، ولبنى التي كانت كاتبة للحكم المستنصر،

و"مُزن كاتبة أبيه الناصر في المرتبة الزائدة عليها إذ كانت عروضية حاذقة بالكتابة بارعة الخط أديبة نحوية شاعرة بصيرة بالحساب مشاركة، لم يكن في قصرهم أنبل منها" (ابن عبد الملك، 1984م، 492/8)، ونظام "الكاتبة بقصر الخلافة من قرطبة أيام هشام المؤيد بن الحكم. وكانت بليغة مدركة محبِّرة للرسائل" (ابن عبد الملك، 1984م، 493/8)، والعبّادية جارية المعتضد بن عباد التي "كانت أديبة طريفة كاتبة شاعرة ذاكرة لكثير من اللغة" (ابن عبد الملك، 1984م، 496/8).

أما الأديبات المؤدِّبات المعلِّمات فمنهنّ إشراق السّويداء "مولاة أبي المطرّف عبد الرحمن بن غلبون القرطبي الكاتب... أخذت عن مولاها أبي المطرف العربية والآداب أيام إقامته بقرطبة ثم انتقلت إلى بانتقاله عنها، وكانت قد فاقته فب كثير مما أخذته عنه، وأحسنت في كل ما تناولته، وكان لها تقدم في علم العروض، وبالعروضية كانت تشتهر. أخذ عنها العروض أبو داوود المقرئ، وقرأ عليها كامل أبي العباس المبرد وأمالي القالي، قال: كانت تحفظ الكتابين ظهرا تنصهما حفظا وتتكلم عليهما" (ابن عبد الملك، 1984م، 480/8)، وأم السعد بنت عصام بن أحمد الكتامي القرطبية، وهي أديبة شاعرة مجيزة (ابن عبد الملك، 1984م، 482/8)، وحمدة بنت زياد بن بقي العوفي المؤدّب، وادي آشية، كانت أديبة شاعرة روى عنها أبو القاسم محمد بن البراق (ابن عبد الملك، 1984م، 485/8)، وحفصة بنت الحاج الرَّكُّونية التي نالت "قدرا كبيرا من العلم والثقافة أهَّلها لأن تتولى تعليم النساء في دار الخليفة المنصور الموحدي" (عيسى، 2009م، ص457).

ومن الشواعر المادحات حسّانة بنت الشاعر أبي المخشي، وقد مدحت الأمير عبد الرحمن ابن الحكم (ابن عبد الملك، 1984م، 484/8)، والشاعرة الشلبية خاطبت المنصور أبا يوسف الموحدي متظلمة من ولاة بلدها وصاحب خراجها (ابن عبد الملك، 1984م، 495/8).

وقد عملت سعيدة بنت محمد بن فيره الأموي التطيّلي بالنسخ، فكانت "تنسخ الكتب نافذة فيما تكتبه أو تخاطب به" (ابن عبد الملك، 1984م، 487/8)، وأختها الصغرى شاعرة ناسخة، لها شعر في بعض أقاربها تتذمر فيه من بخله (ابن عبد الملك، 1984م، 494/8)، مما يشي بأنها طلبت منه عطاء فأبى، ولعل في هذا ما يقرب إلينا صورة الحالة المادية لأدباء الأندلس.

لا يخفى أن ما يميز أديبات الأندلس اهتمامهن بالعلم، فمهنهنّ متعلقة بالمجال التعليمي، أو العلمي كحفصة بنت حمدون بن حيوة التي كانت أديبة عالمة شاعرة (ابن عبد الملك، 1984م، 484/8)، وجارية الحكم المستنصر الكاتبة التي تعلمت خدمة الاسطرلاب في قصر الحكم الذي كلفها بالعمل بما تعلمته في قصره (ابن عبد الملك، 1984م، 495/8).

خاتمة

تنوعت مهن أدباء الأندلس حسب تنوع طبقاتهم الاجتماعية، فشغل بعض الأدباء مناصب رفيعة كالمُلك والوزارة، وهذان صنفان لم أعرج عليهما؛ ليُسر العثور على بغية القارئ منهما، فكتاب كالحلة السّيراء يفي بالغرض في التعريف بالملوك الشعراء والحجّاب والوزراء الأدباء، أما المهن الأخرى فقد تفاوتت من حيث المستوى المادي والاجتماعي، فمهنٌ كالقضاء والكتابة عند الملوك والأمراء كانت تتيح لصاحبها كسبا مهما، ومكانة في المجتمع مهمة أيضا، وثمة مهن لها علاقة بالمجال التعليمي كالتدريس والتأديب، وفيهما يتفاوت أجر المعلم أو المؤدب حسب شهرته وتفوقه، وثمة مهن كالنسح والوراقة وعقد الشروط يتفاوت فيها أربابها حسب الخبرة والشهرة والإجادة والمحل، فالأديب الذي يملك دكانا لعقد الشروط أو النسخ أفضل ممن يفترش الأرض أمام دار القضاء.

وثمة مهن متعلقة بالمجال العلمي كالطب والفلك، ومهن متاحة للمتعلم وغيره، كالحياكة والنجارة والصباغة والجزارة وغيرها، وهي تشي بتدني المستوى المعيشي لبعض الأدباء، ومنهم من رأى أن من هذه المهن ما يدر مالا أكثر من التكسب بالشعر في عصر التقلبات السياسية. ومن الأدباء من كان يتعيّش على الصدقات والأعطيات، ومنهم من آثر العزلة والابتعاد عن الناس، وهو ما مثّل نمط حياة عند عدد من الأدباء.

من خلال هذا كله يتضح أن حياة الأديب الأندلسي لم تكن وردية رومانسية كما يتصورها بعض الناس، فهي حياة واجه فيها الأديب صعابا من أجل لقمة العيش، أما الذين عملوا مع الملوك والأمراء، فلم يكونوا سواء في تمتعهم برغد العيش، فمنهم من انقلبت أحواله بانقلاب الأحوال السياسية، ومنهم من آثر العزلة والابتعاد عن الملوك والأمراء صيانة لنفسه وورعا، أو خوفا من تقلبات الدهر.

وتوصي الدراسة بأهمية دراسة أثر المهن على أدباء الأندلس كتابا وشعراء؛ لبيان تأثيرها فيهم من عدمه، كما توصي باستكمال جوانب دراسة المهن عند الأدباء فمنهم من ذكر المهن الشائعة في عصره وإن لم تكن مهنته، وقد تجنبت الدراسة ذكر ذلك– على الرغم من كثرته– للالتزام بموضوعها، ولتفادي الاستطراد.

المصادر والمراجع:

- ابن الأبّار، محمد بن عبد الله.(1956م) التكملة لكتاب الصلة. تح: السيد عزت العطار الحسيني. مصر: مكتبة الخانجي. مكتبة المثنى. بغداد.
- ابن الأبّار، محمد بن عبد الله (1989م) المقتضب من كتاب تحفة القادم. تح: إبراهيم الأبياري. ط3. القاهرة: دار الكتاب المصري. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- بالنثيا، آنخيل جنثالث.(1956م) ترجمة: حسين مؤنس. ط1. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- البلنسي، أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي (1989م) ديوان الرصافي البلنسي. تح: إحسان عباس.بيروت: دار الثقافة.

- الحميدي. (1989م) جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس. تح: إبراهيم الأبياري. ط3. القاهرة: دار الكتاب المصري. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- خالص، صلاح. (1965م) إشبيلية في القرن الخامس دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بني عباد في إشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها. بيروت: دار الثقافة.
- دياب، حامد الشافعي. (1998م) الكتب والمكتبات في الأندلس. ط1. القاهرة: دار قباء.
- ريبيرا، خوليان (1994م) التربية الإسلامية في الأندلس أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية. ترجمة: الطاهر أحمد مكي. ط2. القاهرة: دار المعارف.
- ابن سعيد، علي بن موسى. (1980م) اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى. تح: إبراهيم الأبياري. ط2. القاهرة: دار الكتاب المصري. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- ابن سعيد، علي بن موسى. (1993م) المُغرب في حلى المَغرب. تح: شوقي ضيف. ط4. مصر.
- السعيد، محمد مجيد. الشعر في عهد المرابطين والموحدين في الأندلس. العراق: دار الرشيد.
- الشّطشاط، دعلي حسين. (2001م). نهاية الوجود العربي في الأندلس. القاهرة: دار قباء.
- فرحات، يوسف. وعيد، يوسف، (2000م) معجم الحضارة الأندلسية. ط1. بيروت: دار الفكر العربي.
- ابن عبد الملك، أبو عبد الله محمد بن محمد. (1973م) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة. تح: إحسان عباس. ومحمد بن شريفة. ط1. بيروت: دار الثقافة.
- عتيق، عبد العزيز. (1975م) الأدب العربي في الأندلس. ط1. بيروت: دار النهضة العربية.
- ابن عسكر، أبو عبد الله. وابن خميس، أبو بكر. (1999م) أعلام مالقة. تقديم وتخريج وتعليق: عبد الله المرابط الترغي. ط1. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- عنان، محمد عبد الله. (2001م) دولة الإسلام في الأندلس عصر الموحدين. مصر: الهيأة المصرية العامة للكتاب.
- عيسى، فوزي. (2009م) شعراء أندلسيون منسيون. ط10. الإسكندرية: دار الوفاء.
- عيسى، فوزي. (1979م) الشعر الأندلسي في عصر الموحدين. ط1. الإسكندرية: الهيأة المصرية العامة للكتاب.
- عيسى، محمد عبد الحميد. (1982م) تاريخ التعليم في الأندلس. ط1. مصر: دار الفكر العربي.
- المقَّري، أحمد بن محمد التلمساني. (1988م) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تح: إحسان عباس.بيروت: دار صادر.